دروس من ذكريات شهر شوال في إسقاطها على واقع الحال بين غزوتي أُحُد والأحزاب وما يحدث في أرض بيت المقدس من البلاء والنِّضال

2026-03-27

الحمد لله الذي أن أسبغ علينا نعمه، وأفاض لدينا مننه، وأنزل إلينا كتابه الذي فصّل آياته فأحكمه وأتقنه، وجعلنا من أتباع شرعه فعلّمنا فروضه وسننه، وخصّنا بإرسال أكرم الخلق عليه. وأزكاهم لديه، ﷺ، فشرح صدره. ووضع وزره. ورفع ذكره، وجعل خير القرون قَرْنَه الذي به قَرَنَه. فسبحانه من إله جعل سَرْد سيرة نبيّه ﷺ نزهة لذوي الأبصار والإستبصار. وأَخْذ الدروس والعِبَر منها يحيي موات القلوب ويشوّقها إلى حضرة المواهب والأسرار. وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. جعل سيرة نبيّه ﷺ أساس العمل والعبادة، والإقتداء بها يحقِّق في الدارين السعادة، فهي أمنًا لمن تمسّك بها ونجاة من المعاطب. ورِفعة الشّرف إلى أعلى المراتب، وَأَشْهَدُ أَنَّ سيّدنا مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَصَفيُّه مِنْ خَلْقه وخليله، قامَ بحَقِّ دَعْوَتِهِ، واستجابَ لرَبِّهِ في تَبْليغِ رِسالَتِهِ؛ فكانَ مَناراً علَى مَحَجَّتِهِ، وبُرْهاناً قاطِعاً في حُجَّتِهِ، رَهَّبَ مِنْ عَذابِ اللهِ ورَغَّبَ في جَنَّتِهِ، ونَصَحَ فأخْلَصَ النُّصْحَ لأُمَّتِهِ، حتى فَتَحَ اللهُ بِهِ أَعْيُناً عُمْياً، وَآذَاناً صُمّاً، وَقُلُوباً غُلْفاً،

مَا مِثْلُ رُتْبَتِهِ الرّفيعةِ رُتْبَةٌ * في الفخْر والعَلْياءِ والإجْلالِ

كَلاَّ ولا أحَدٌ يُبارِي فضْلَهُ * مِنْ سائرِ الأملاكِ والأرسالِ

صلّوا عليه وأكْثِروا بصلاتِكُمْ * أبدًا لدى الإبْكار والآصالِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. سيّد ولد عدنان. وعلى آله السادة الأعيان. وصحابته الأجلّة الشجعان. صلاة تنوّر بها قلوبنا بنور الصدق والإيمان. وتهب لنا بها درجة أهل الخصوصية والعرفان. وتعطينا بها في جنّة النعيم ما لا عين رأت ولا أُذْن سمعت ولا خطر على قلب إنسان. من الغُرَف والقصور والحور الحسان. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا رب العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ السيرة النبوية هي مصدر قدوتنا في السراء والضراء، فهي شرعٌ وشريعة؛ لأنه ﷺ المثل الأعلى

والقدوة الحسنة في كل شيء، فكن مَن شئتَ، وابنَ مَن شئتَ، فستجد في الحبيب المصطفى ﷺ مثلك الأعلى، فهو ﷺ نموذج عملي لجوانب الحياة كلها، دعونا نرجع بكم إلى هذه السيرة العطرة، من خلال هذا الشهر الذي نحن فيه، وهو شهر شوّال، الشهر العاشر من الشهور الهجرية الإسلامية، لنجده قد حمل إلينا في طيّاته أحداثا عظيمة من السيرة النبوية؛ ففيه وقعت أربع غزوات كبرى من غزوات النبي ﷺ، وهي: غزوة بني قينقاع ضد اليهود في السنة الثانية من الهجرة، وغزوة أُحُد ضد كفار مكة في السنة الثالثة، وغزوة الخندق ضد كفار مكة أيضا في السنة الرابعة وقيل الخامسة، وغزوة حنين ضد كفار هوازن والطائف في السنة الثامنة، وفي شهر شوّال أيضا نتذكّر زواج رسول الله ﷺ بزوجتَيه: السيّدة عائشة والسيّدة أُمّ سلمة رضي الله عنهما؛ أيّها المسلمون. تعالوا بنا نعيش في هذه الأيام من شهر شوال مع حَدَثَيْن: حدثٌ تاريخي تأصيلي، وحدثٌ واقعي تنزيلي، فالحدث الأوّل التاريخي؛ يذكّرنا بحالة الإبتلاء التي أُصيب بها الصحابة رضوان الله عليهم ومعهم رسول الله ﷺ، في غزوتي "أُحُد" و"الأحزاب"؛ وقد ابْتُلي فيهما المسلمون وزُلزلوا زلزالا شديدا، أمّا غزوة أُحُد؛ فقد وقعت في السنة الثالثة من الهجرة، وفيها استُشْهِد من الصحابة سبعون، حتى كانوا كما وصفهم القرآن الكريم في هذا البيان من سورة آل عمران: {هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدىٗ وَمَوْعِظَةٞ لِّلْمُتَّقِينَۖ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ اُلَاعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّومِنِينَۖ إِنْ يَّمْسَسْكُمْ قَرْحٞ فَقَدْ مَسَّ اَ۬لْقَوْمَ قَرْحٞ مِّثْلُهُۥۖ وَتِلْكَ اَ۬لَايَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ اَ۬لنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اَ۬للَّهُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَۖ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ اُ۬لظَّٰلِمِينَۖ وَلِيُمَحِّصَ اَ۬للَّهُ اُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ اَ۬لْكَٰفِرِينَۖ أَمْ حَسِبْتُمُۥٓ أَن تَدْخُلُواْ اُ۬لْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اِ۬للَّهُ اُ۬لذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ اَ۬لصَّٰبِرِينَۖ}، وأمّا غزوة الأحزاب؛ فقد وقعت في السنة الخامسة من الهجرة، وفيها اِلْتجأ الصحابة رضوان الله عليهم إلى حَفْر الخندق بسرعة. رغم الجوّ البارد. والمجاعة التي أصابت المسلمين؛ واشتدّ بهم الحال. وضاق عليهم الأمر لمّا سمعوا أنّ يهود بني قريظة نقضوا العهد. كما قال تعالى في سورة الأحزاب: {إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ اِ۬لَابْصَٰرُ وَبَلَغَتِ اِ۬لْقُلُوبُ اُ۬لْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ اِ۬لظُّنُونَاۖ هُنَالِكَ اَ۟بْتُلِيَ اَ۬لْمُومِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاٗ شَدِيداٗۖ}، ومكث الحصار قريبا من شهر. أيّها

المسلمون. أمّا الحدث الثاني الواقعي الحال؛ هو ما يحدث اليوم للمسلمين في أكثر من بلد، وبالخصوص في أرض بيت المقدس، فالحدث التاريخي من السيرة النبوية هو مصدر التأصيل لمواجهة الإِبتلاء، حتى نتمكّن من التنزيل في الحدث الواقعي؛ فمن خلال ابتلاء الصحابة في غزوتَيْ أُحُد والأحزاب نتعلّم كيف نواجه الابتلاء في القدس وغزة وفلسطين، حسب القدرة والاستطاعة فيما يلي: أوّلا: بالنسبة لنا؛ فأقلّ واجب على كل مسلم؛ ألاّ ينسى أمريْن: الأمر الأوّل: الإحساس؛ والمراد به الشعور بمأساة أهل القدس؛ يجب ألاّ يُنسينا ما نحن فيه، والحمد لله من الأمن والأمان، والسلامة والسلام، الذي أكرمنا الله به، ألا ينسينا هذا مأساة إخواننا المظلومين في أكثر من بلد، وخصوصا في القدس وغزة وفلسطين، وذلك أضعف الإيمان؛ فأخشى ما نخشاه؛ بل أكبر مصيبة أن نفقد حتى أضعف الإيمان، وأن يكون عندنا ما يجري أمرا عاديا، لا يسبّب لنا ألمًا نفسيا، ولا يحرّك فينا إحساسا إيمانيا؛ فأضعف الإيمان هو المستوى الأدنى، فحينما نفقده ستتبدّل أفكارنا، وتتبلّد مشاعرنا، فنفقد حتى الإحساس الإنساني؛ فكيف بالإحساس الإسلامي؟ والنبي ﷺ يقول: ((مَن رَأى مِنكُم مُنكَرًا فليُغَيِّرْه بيَدِه، فإن لَم يَستَطِعْ فبِلِسانِه، فإن لَم يَستَطِعْ فبِقَلبِه، وذلك أضعَفُ الإيمانِ))، ويقول ﷺ فيما يجب أن تكون عليه قلوبنا في الإحساس والشعور: ((مثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم، وتَرَاحُمِهِم، وتعاطُفِهِمْ. مثَلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تدَاعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى))، كما يقول ﷺ فيما يجب أن يكون عليه شكلنا ومظهرنا: ((إنَّ المُؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّكَ أصابِعَه)). أيّها المسلمون. الأمر الثاني: الدعاء؛ والمقصود الدعاء المبني على الإحساس بمأساة أهل القدس وفلسطين، وليس الدعاء الذي يجري على ألستننا دون أن ينبع من قلوبنا، فالدعاء سلاح المؤمن، به يَدفع البلاء، وبه يَردّ شر القضاء، ولا شيء أكرم على الله من الدعاء؛ لأنه استعانة من عاجز ضعيف، بالقوي اللطيف، واستغاثة مِن عبدٍ ملهوف، برب رحيم رؤوف، لينصر أهل القدس على الأعداء، وليُزيل عنهم العِلّة والاعتداء، ويرفع عنهم المحنة والابتلاء، ويكشف عنهم الغمّة والبلاء؛ فقد أمر الله بالدعاء ووعد بالإجابة فقال تعالى في سورة غافر: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ}، وقال سبحانه في سورة

البقرة: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، وقال النبي ﷺ: ((الدعاء سلاح المؤمن))، وقال ﷺ: ((إنّ الدعاء هو العبادة))، وفي رواية: ((الدعاء مُخّ العباد))، أيّها المسلمون. فمن الواجب علينا أن ندعو لإخواننا المظلومين في القدس وفلسطين، وأن نؤمن بأنّ الإجابة تأتي بقدر صِدْقنا في الدعاء؛ ولكن لا نيأس ولا نحتار: متى الاستجابة؟ ولا في كيفية الاستجابة؟؛ فمَن تتبّع الحروب الظالمة التي وقعت على القدس وأهلها، في العقديْن الأخيريْن سيدرك أنّ الله سبحانه يبني النصر للمظلومين بالتدريج، فالنصر بإذن الله في شكل تصاعدي؛ فالمصيبة هي التي تنزل مرة، أمّا الخير والنصر فيأتي شيئا فشيئا؛ فالله سبحانه وتعالى هو الذي يختار متى وكيف؛ قال النبي ﷺ: ((ما مِنْ مُسلِمٍ يَدْعو بدعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رَحِمٍ، إلَّا أعطاهُ اللهُ إِحْدى ثلاثٍ: إمَّا أنْ يُعَجِّلَ لهُ دعوتَهُ، وإمَّا أنْ يدَّخِرَها لهُ في الآخِرةِ، وإمَّا أنْ يصرِفَ عنهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَها)). وفي هذا قال ابن عطاء الله في حِكَمِه: (لا يَكُنْ تأَخُّرُ أَمَدِ العَطاءِ مَعَ الإلْحاحِ في الدُّعاءِ مُوْجِباً لِيأْسِكَ. فَهُوَ ضَمِنَ لَكَ الإجابةَ فيما يَخْتارُهُ لَكَ لا فيما تَخْتارُهُ لِنَفْسِكَ. وَفي الوَقْتِ الَّذي يُريدُ لا فِي الوَقْتِ الَّذي تُرْيدُ)، أيّها المسلمون. ثانيا: بالنسبة لأهل القدس؛ يكفيهم شرفا وأجرا أمران: الأمر الأوّل: أنهم دليل من دلائل نبوّة سيّدنا رسول الله ﷺ؛ يكفيهم شرفا أنّ النبي ﷺ أخبرنا عنهم، واعتزّ بهم، ومدحهم قبل أن يُخْلَقوا، فكانوا ضِمْن حديث نبوي شريف يقرؤه الناس على مدى أربعة عشر قرنا؛ فقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ، أيْ: شدة وضيق معيشة، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: "بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ))، فكأنّنا نقرأ فيما يحدث في القدس اليوم هذا الحديث النبوي الشريف، أيّها المسلمون. الأمر الثاني: أنّ أعظمَ الناس أجرًا في الآخرة عند الله تعالى أشدُّهم بلاء في الدنيا، وأنّ أكثرَهم أجرا في دار البقاء أشدُّهم بلاء في دار الفناء؛ فالمصائب الدنيوية علامة على محبّة الله للعبد، تَرفع من درجاته وتمحو خطاياه، والأحاديث الدالّة على ذلك كثيرة؛ منها: يقول رسول الله ﷺ: ((إنّ عِظَمَ

الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن اللهَ عز وجل إذا أَحَبَّ قومًا ابتلاهم؛ فمن رَضِيَ فله الرِّضَى، ومن سَخِطَ فله السُّخْطُ))، ويقول ﷺ: ((ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وصَبٍ، ولا هَمٍّ ولا حُزنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكةِ يُشاكُها، إلَّا كَفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))، وفي رواية: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ))، ويقول ﷺ: ((مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ، فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ))، ولهذا فإنّ أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأفضل فالأفضل، ((سُئِلَ رسولُ اللهِ أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال الأنبياءُ، ثم الأمثَلُ فالأمثَلُ، يُبتَلى الناسُ على قدرِ دِينِهم، فمن ثَخنَ دِينُه اشتدَّ بلاؤه، ومن ضعُف دِينُه ضعُفَ بلاؤه، وإنَّ الرجلَ لَيصيبُه البلاءُ حتى يمشيَ في الناسِ ما عليه خطيئةٌ))، أيّها المسلمون. لقد تحمّل النبي ﷺ الشدائد وهو في مكة، وتحمّلها وهو في المدينة، وغزوتا أُحُد والخندق أَوْضح مثال لذلك، كما عانى قبله الأنبياء، وبعده العلماء، في سبيل دعوتهم إلى الله، فلا تكاد تخلو ترجمة عالم من محنة، عُذِّب فيها في سبيل الله؛ فها هم الأئمّة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد؛ كل واحد منهم امتُحِن وعُذِّب وسُجِن، كما امتُحِن غيرُهم من العلماء عَبْر التاريخ، وفي عصْرنا هذا امتُحن العلماء في ظل الاستعمار في العالم الإسلامي، وفي بلادنا امتُحن العلماء من أجل الاستقلال، وعلى والله تعالى يقول في سورة العنكبوت: {الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ}؛ إقرؤوا حياة الأنبياء، إرجعوا إلى سِيَر العلماء النبلاء، لتتعلّموا أنّ مصائب الدنيا ليست نقصا في الدين، فمشكلتنا اليوم أنّنا بعيدون كل البُعد عن حياة العلماء وسِيَر النبلاء، لقد أصبحت عقولنا محشوّة بما تفرضه علينا وسائل الإعلام، ومواقع الألغام، من أبطال البطلان والفساد؛ فلا ينبغي أن يتسرّب إلى عقولنا أنّ الله تعالى قد غضب على أهل القدس وغزّة بهذا الاعتداء الظالم؛ فقد وقع مثل هذا للأنبياء، ورحم الله الإمام البوصيري حين قال في همزيته:

لا تَخَلْ جانِبَ النبيِّ مُضاماً * حينَ مَسَّتْهُ منهمُ الأَسْواءُ

كلُّ أمرٍ نَابَ النبيّينَ فالشد * دَةُ فيه محمودةٌ وَالرّخاءُ

لو يَمسُّ النُّضَارَ هُونٌ مِنَ النا * رِ لما اختيرَ للنُّضَارِ الصِّلاءُ

النضار هو الذهب؛ فلو كانت النار تفسد الذهب ما كان الصائغ ليستعملها في إذابته حتى يزيل منه الشوائب، والذهب لن يكون خالصا ومن العيار الممتاز إلا بالنار؛ وكذلك الابتلاء إنما يُظهر في الناس الصالح من الطالح؛ والرسول ﷺ يقول: ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة))، أيّها المسلمون. وهكذا تظلّ سيرةُ رَسُول اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بأحداثها ودروسها معلِّماً هادياً. ودرساً بليغاً، وَعَتْهُ الأجيال المسلمة فيما مضى، وينبغي أنْ تَعِيَهُ في زماننا. فنسأل الله الكريم. ربّ العرش العظيم. بحرمة أحبّ الخلق إليه. وأكرمهم عليه. سيّدنا ومولانا محمّد صلى الله وسلم عليه. وبحرمة آله وأصحابه الذين اصطفاهم لصحبته. وأهّلهم لنصرته. أن يجعلنا ممّن إعتبر وادّكر بهذه السيرة. فتاب إلى ربّه واستغفره من كلّ صغيرة وكبيرة. كما نسأله تعالى بمنّه وكرمه أن يفتح للمسلمين فتحا من عنده، وأن يردّهم إلى دينهم ردّا جميلا، وأن يجمع كلمتهم على الحقّ والهدى، وأن يُكبت أعداءهم، إنّه سميع مجيب. اللهم واجعلنا من الراشدين. وتوفّنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين. يا ربّ العالمين. وآخِر دعوانا أنِ الحمد لله ربّ العالمين. اهـ